الفصل الثاني
المنظر الأول

(في القصبة أيضًا.. جزء من شارع ضيق متدرج.. على يساره جدران متهدمة وخرائب.. بيت بوحريد يملأ يمين المسرح.. البيت من طابقين: الطابق الأول منه في مستوى آخر درج من الشارع.. مدخل بيت مصطفى بوحريد في الصدر يفضي إلى بهو ضيق به سلم.. السلم يقود إلى حجرة فسيحة بها شرفة في الصدر ولها بابان من اليمين.. عندما يفتح باب الشرفة الواسع يبدو الأفق والجبال من بعيد.. والسماء.. وقلعة بربروسة بأبراجها العتيقة جاثمة كشبح رهيب!. الوقت مساء... الشارع يكاد يكون مظلمًا.. جميلة على مكتبها في الحجرة والشرفة من أمامها تغمرها حمرة الأصيل، وعلى المكتب كتب كثيرة وحقيبة مدرسية.. والحجرة من الطراز الأندلسي متواضعة الأثاث.. وآنية الزهور قد نسقت فيها بعناية... جميلة تضع رأسها في يديها في حزن شديد!)

جميـــــلة : أنا لا أرى ضوء النهار

أنا لا أرى إلا الدخان، ولست أسمع غير أصوات انفجار

وغير ترجيع الأنين! وارحمتا لك يا أمينة

إني لأعجب كيف متّ!

(صمت.. ثم تنتفض كأنها تكلم خيالاً)

لِمَ جئت بعد بداية الدرس؟ اشرحي لي أين كنت؟

لا. كيف هذا!! كانت كعملاق بطل!

لا... لا، محال أن تموتي يا أمينة مثل هذا

دخلت إلينا بعد ذلك الانفجار

ومدرس التاريخ يهذي عن بطولة بونابرت

والطاليات أمامنا ووراءنا يهززأن بالدرس الممل

وامتد كف أمينة لتهزني وكأنما يدها تقولْ

وبعينها ومض هزيلْ!

وشعرت فوق ملابسي بدم.. أجلْ، دمها النبيل

دمها؟ أجل دمها يسيل على الكتبْ

وسألتها ماذا دهاك؟ فلم تجبْ! ماتت على درجي! أجل!

(تتحرك في ضيق متجهة إلى الشرفة والأفق يغمره غسق أحمر فاجع الشحوب)

ما بال ألوان المساء هناك تصبغها الدماء

والريح مثقلة بمأساة الحياة، وكل شيء مختنق

أسفاه! قد سقطت وفي نظراتها وهج سيشرقْ

وبيير يركلها بكعب حذائه والرعب يعتصر الجميعْ

ودماؤها تنساب في خيط رفيعْ ويمثل لمح البرق مالتْ

وتجرعت أنبوبة السم الصغيرة ثم قالتْ:

لا تتركوا أحدًا يساق إلى سجن بربارروسه

ولديه سرٌّ ما من الأسرار

فهناك حكم العارْ! والتعذيب، والموت البطيء بغير رحمةْ

والانتحارْ أعز للإنسان من أن يسجنوه

ماتت وفوق شفاهها اختلج الهتاف: تحيا الجزائرْ

(تدخل إلى الشرفة وعيناها على سجن بربارروسة تمامًا)

وارحمتا لك يا أمينه! أواه.. أنفاسي ثقيله

(منفجرة)

لمَ لا تصيح الأرض في وجه المظالم والمجازرْ

لمَ لا يصير تموج النسمات كالضربات في وجه الطغاه؟

لمَ لا يزال الليل يسطع بالنجوم على الجزائرْ

لمَ لا يزال الزهر يذكو هاهنا في حجرتي؟

عاد الربيع فما الذي يرجو الربيعْ؟

مازال زهر الأرض يطفو فوق أمواج الدموعْ!

والشمس تشرق رغم مأساة الحياة ولا تبالي!

أواه، قد زحف الظلام، وليلتي أنّتْ كثاكلة الليالي

(كأنها تصرخ ونظرها متجه إلى قلعة بربروسة)

لمَ ذلك السجن الرهيب يصُدُّ سر الليل عني؟

لا تدن مني!

يا سجن بربروسةٍ فلتحتجب عن ناظري

لا شيء مثلك يستثير خواطري

في حيثما أمشي، هنالك في الطريق، وحين أفتح نافذة

أنا لا أرى إلا قلاعك كالمسوخ الشائهات!

لا تدن من، ي لا شيء مثلك يستثير خواطري

يا أيها الحجر المهين

من أي أحجار الجحيم صنعت، ثم وقفت مرتفعًا على أشلائنا مستهزئًا بصراخنا ودموعنا!

وبكل ما امتلك الفؤاد من المنى، ومن الضنى؟

(كأنها تقذفه بكل جسدها)

ليطحْ بك الطوفانْ ليثرْ بكَ البركانْ

فلتسحقك صاعقةٌ يؤججها لظى أنفاسنا

واللاعج المكظوم في أعماقنا والشارد الملتاع من أحلامنا

(تتهاوى في حالة انهيار، بينما يسود الحجرة ظلام المغرب وفي الطريق من الخارج يتضح وجه هارون الذي دخل الشارع منذ لحظة مع بيير.. ثم يظهر أحمد المصري وعندما يكتشف وجود هارون من وراء إحدى الخرائب مع الضابط يتراجع، ويقف متسمعًا.. بعيدًا عنهما وراء أحد الجدران المتهدمة..)

هـــارون : في ذلك البيت المهدم، هل ترى البيت المهدم؟

بـــــيير : لو كنت تكذب سوف تفصل ثم تسجن، ثم تعدم

هـــارون : أنا في الصباح رأيته يمشي وراء الكوميساريا وأتت أمينة وكأنها تلقاه صدفه

ومضيت نحوهما وكدت أناله لولا مفاجأتي بذلك الانفجار ورأيتها تمضي بعيدًا في اتجاه المدرسة أما الشقي، فقد هرب!

بـــــيير : أتقول في هذا المكان تجمعوا؟

هـــارون : خلف الجدار! حاصروهم مما وراء المسجد

فهناك سرداب قديم يهرب الثوار منه!

بـــــيير : سأعود بعد هنيهة برجالنا

هـــارون : أوَ لاَ يفتش سيدي هذا المكان؟

فلقد يكون هناك من يتسمعون

بـــــــيير : (وهو ينصرف)

ألدَيَّ وقت كي أضيعه على شك الجواسيس المبالغ فيه؟

(ينصرف)

هـــــارون : أنا لست جاسوسًا كما قلنا ولكني مواطن

أنا أخدم الوطن الكبير الأم..

(أحمد المصري ينقض عليه من ظهره ومعه خنجره، فيحاول هارون الصراخ، ولكن أحمد يكمم فمه)

أحمـــــد : خائن!

(هارون يحاول أن يصرخ، فيقترب أحمد المصري بالخنجر إلى قلب هارون)

أحمـــــد : هارون... جرب أن تصيح

هـــــارون : أخي

أحمـــــد : امض من هذا الطريق

هـــــارون : ماذا ستصنع يا صديقي؟

أحمـــــد : هل لجاسوس صديق!

(يختفيان وراء جدار مهدم آخر غير الذي كان يقف أمامه هارون وبيير منذ لحظة.. بينما مصطفى بوحريد يدخل غرفة بيته حيث انكفأت جميلة في الظلام على مكتبها.. مصطفى لا يرتدي ملابسه كاملة)

مصـــطفى : (لنفسه وهو يتأمل جميلة)

ماذا... أتقرأ في الظلام!

جمـــــيلة : (كأنها تئن)

لمَ لمْ يعد يتواثب العصفور في أرج الخميله؟

لمَ تسحق الزهراتِ أقدامٌ معربدة ثقيله؟!

لمَ خضرة الزيتون قد غاضت

ولم تعد الحياة سوى اصفرار كالعدمْ؟

تيهٌ يئن به الندمْ

لم هذه الدنيا تئن كأنها قلب معذبْ!

لم كل شيء باهت حولي، ومذنبْ؟؟

(مصطفى يضيء النور)

مصـــطفى : يا جميله

جمـــــيلة : عمي.. أأنت أضأت هذا النور؟

مصـــطفى : ماذا يا ابنتي؟ لم أنت شارده؟

جمـــــيلة : أنا...؟

(يمسك كتابها وينظر فيه)

مصـــطفى : أنا لست أعرف كيف أقرأ، إنما من ساعه

وأنا أراك أمام نفس الصفحة إني لأعرفها بتلك الصوره

(يضحك في طيبة)

جمـــــيلة : تتشابه الصفحات يا عمي كأيامي تمامًا؟

مصـــطفى : ماذا عساك قرأت في صفحاتك المتشابهات؟

جمـــــيلة : قصص الشقاءْ

مصـــطفى : مازلت أصغر يا ابنتي من مثل هذا الحزن!

جمـــــيلة : أنا لست أصغر من كثيرات سمون على الحياة

مصـــطفى : حقًّا!

جمـــــيلة : في مثل سني يسقط الآلاف من شهدائنا

وعلى الشفاه، مع الدم المسفوك رن هتافهم تحيا الجزائر

(تبكي بصوت مختنق)

مصـــطفى : لا لا. امسحي عينيك

جمـــــيلة : عمي، لماذا آثرت أن تنتحر؟

مصـــطفى : هذا قضاء الله في بعض المواقف يا ابنتي

يختار بعض الناس صمت الموتْ

جمـــــيلة : عمي.. لماذا اخترت أنتْ تلك الحياة الساكنه

متحصنا بالصمتِ خلف جدار حكمتك الوقور المذعنهْ

أو لا تبالي بالذي يجري هنا؟

مصـــطفى : لا تنشغلي بسوى دروسك يا ابنتي

جمـــــيلة : أعلمت ما قالت أمينة لي ونظرتها الحبيبة تنطفئ؟

مازال في أذني صدى من همسها:

قولي لهم! فلمن أقول؟

مصـــطفى : **(باهتمام خاص)** قولي لهم ماذا؟

جمـــــيلة : لمن - ويحي - أقول رسالتي؟!

(ولد صغير هو: سرحان شقيق جميلة يأتي من الداخل من الباب الجانبي، ويتجه إلى مصطفى بوحريد)

سـرحان : (يصرخ)

ساح الماء من المغطس يا عمي فلتدخل فورًا

فلقد أقفلت الصنبورْ وفتحت البالوعه

مصـطفى : اذهب يا سرحان وسد البالوعه

سـرحان : طيب

(يخرج)

مصـطفى : سأجيء وراءك للحمام

جميـلة : أهذا ما يعنيك الآن؟ الحمام!

أفلا تعنيك رسالتها؟!

وهجوم البوليس القاسي يعبث في بيت أمينهْ

والقبض على أم أمينة وأخيها..؟

مصـطفى : (متحرجًا) حسبك حسبك يا مجنونهْ

فالجدران لها آذان

جميـلة : (مستمرة) وتهَجُّمُهُمْ في كل مكان

ودم الشهداء يسيل هنا وهناك.. ألا يعنيك؟

مصـطفى : لم تَنْشَغلين بغير الدرس؟

جميـلة : أو أنت تعلمني هذا؟ أو أنت؟

مصـطفى : ضعي عينيك على دفترك ولوذي الساعة بالصمت فلتنشغلي بكتابك

(جميلة تقذف الكتاب وهي تصرخ)

جمـــــيلة : في تلك الصفحات السود يُلفّق تاريخ الإنسانِ

هي سخرية بي وبعقلي وبوطني وبوجداني

في تلك الكتب المسمومةْ! المفتريات المشئومةْ

عن وطني العربي الباسلْ! لن أقرأها، سأمزقُها سأمزقُها ؛ وسأحرقها!

(ترمي بالكتب كلها وتركلها، بينما مصطفى بوحريد يريد أن يمنعها)

مصـــطفى : أجننت؟ ماذا تفعلين؟

إن الجزائر يا ابنتي في حاجة إلى مثقفين

جمـــــيلة : إن الثقافة زيفت في هذه الكتب اللعينةْ

أنا لا أرى وطني الجزائر هاهنا

في صفحة منها، ولا في منزلي

مصـــطفى : في منزلك؟

جمـــــيلة : أترى، أتى الزمن الذي لابد لي فيه من استنفار مثلك

أنت الذي علمتني مع أول الكلمات ألفاظ النضال

مصـــطفى : ما بال طفلتي الصغيرة ثائرةْ!

ما بال قِطّتي الوديعة أصبحت مثل النمور الكاسرةْ

جمـــــيلة : أنا لست قطتك الوديعة بعد، فاتركني لحالي

مصـــطفى : لا تصرخي فسيسمع الجيران صوتك

جمـــــيلة : أنا لا أبالي سأظل أصرخ ثم أصرخ كي أحرك نخوتكْ

وأثير فيك عروبتكْ قم يا رجل

أطلق صراخ الاحتجاج على الأقل

ما كل هذا الصمت.. هل هرب الدم العربي منك؟

مصـــطفى : أجننت؟ كيف تخاطبين اليوم عمك هكذا؟!

جمـــيلة : دعني..

مصـــطفى : وكيف توجهين إلى الذي رباك ألفاظًا كتلك

جمـــيلة : أنا أكرهك

(يرتطم جسم بأرض الشرفة، ويدخل جاسر من باب الشرفة المفتوح مندفعًا إلى مصطفى بوحريد ويمسك به. سرحان شقيق جميلة يأتي من الداخل على صوت الارتطام وصراخ أخته)

مصـــطفى : من؟ جاسر!! يا مرحبا بك!

جمـــيلة : "مأخوذة" أنت جاسر؟!

مصـــطفى : اجلس هنا

جمـــيلة : (مضطربة) عمي.. فأنت إذًا...

جاســـر : (يقاطعها بحسم كأنه يطردها) جميله

مصـــطفى : ادخلي

جاســـر : وخذي أخاك

ســـرحان : من أين يعرفنا؟

جمـــيلة : (في زهو كطفلة) هو ليس يعرف غير اسمي

ســـرحان : (هامسًا لأخته) واسمي كذلك انظري

(سرحان يتقدم متجهًا إلى جاسر الذي يضيق بوجودهما الآن)

سـرحان : أتراك تعرفني؟

جاسـر : (بسماحة وصبر) أجل سرحان.. سرحان البطل

سـرحان : (لأخته فخورًا): أرأيت؟ سرحان البطل

(يضحك جاسر وهو يتأمل فرح سرحان)

جميـلة : (لنفسها) ماذا؟ أيضحك جاسر..؟

سـرحان : (بدهشة لأخته)، أرأيت جاسر وهو يضحك؟
أوَ مثل هذا الفارس المغوار يضحك!

جاسـر : (بحسم مفاجئ لجميلة وسرحان) لمَ تبقيان؟
لتتركانا الآن

(جميلة تتجه إلى السلم.. ووراءها أخوها سرحان الذي يقطف زهرة من آنية الزهور)

جميـلة : (لسرحان في غضب) سرحان لا تقطف زهوري

سـرحان : (وهما يمشيان) قد تعبنا من زهورك

(سرحان يعبث بالزهرة)

جميـلة : لمَ تسحق الزهر الرقيق؟!

سـرحان : لو كنت تهتمين باستذكار شيء من دروسك
مثل اهتمامك بالزهور!! قد كان عمي يضربك لتذاكري..
وأنا سمعتك تصرخين

(جميلة تسكته بيدها)

مصـــطفى : قد كنت في قلق عليك..

جاســـر : أنا كذلك.. كنت في قلق حزين!

أعرفت يا بوحريد، في القصبة خيانه؟

مصـــطفى : ماذا تقول؟ وكيف هذا؟ كيف؟ قل! يا للمهانةْ!

جاســـر : قد طوقونا في بداية الاجتماع

مصـــطفى : في مخبئك!؟

جاســـر : فهربت عبر السطح ثم زحفت من سطح لآخر

حتى هبطت بشرفتك

مصـــطفى : من يا ترى الجاسوس؟! من ذا قادهم إلى مكان جاسر؟

جاســـر : أنا لست أعرف من يكون

(جميلة تندفع إلى السلم من الطابق الأول)

جمـــيلة : **(مندفعة)** هارون

ســـرحان : **(في غضب)** كيف سمعت ما كنا نقول؟

بأي حق تسمعين؟

جمـــيلة : **(مترددة بين الصعود والهبوط)**

لكن أمينة وهي في النزع الأخير مالت عليَّ

وطالبتني أن أقول بأن هارون الشقي، هو العميل

جاســـر : **(باهتمام)** ماذا.. تعالي

جمـــيلة : **(تكمل وهي تصعد)**

فلقد رآها ثم طاردها صباح اليوم عند الكوميساريا

والحق أني لم أكن أدري لمن سأقول هذا كله
ما كنت أعرف قبل يا عماه أنك..
(تضطرب فتلوذ بعمها وترمي رأسها على كتفه)

مصـــطفى : يا ابنتي

جمـــيلة : أأنا أُهينك أنت يا من كنت لي منذ الطفوله...

جاســـر : **(مقاطعًا)** لا ! لا دموع الآن ليس لديّ وقت للدموع أتراهمُ قبضوا على أحد هناك؟

مصـــطفى : أجل. على أم الشهيده

جاســـر : لكنها لا تعرف التنظيم

مصـــطفى : لا بالطبع، وهي كذاك ثابتة العقيدهْ

جاســـر : أتراهم قبضوا على أحد سواها

جمـــيلة : على أخيها

(ثم يستدير جاسر فجأة، وتعاوده لهجته الحاسمة)

جاســـر : والآن نحن محاصرون هنا فكيف تجيئنا الأخبار؟
ثم... هناك موعد شعبتك

مصـــطفى : هو بعد ثلثي ساعة في مخبئك

جاســـر : قد يذهب الزملاء لي في مخبئي وعلى مداخله جنود

مصـــطفى : أنا ذاهب لأرى وأرسلهم إليك هنا
سألحقهم جميعًا في البيوت

جاســـر : أسرع، فقد يفد الصحاب إلى هناك مبكرين!

مصـــطفى : حسنًا، سأمضي هكذا.. هاتي العباءة يا ابنتي

(تدخل)

جاســـــر : اذهب إلى عزام وعمار.. وأما هند فليذهب إليها عمار
يا مصطفى، عجل بربك

(جميلة تعود بالعباءة فيلتف بها فوق ملابسه ويهبط السلم)

مصـــطفى : السلام..

جاســـــر : اذهب.. ترافقك السلامه

مصـــطفى : لا تفتحي إلا إذا استوثقت ممن يقرع البابَ

جمـــيلة : اطمئن
لتعد مُعافىً.. في أمان الله يا عمي
(يفتح باب البيت ويخرج ويغلقه وراءه)

ســـرحان : إذًا هو أنت جاسر؟ إن رأسك غاليهْ

جاســـــر : (لنفسه) ليعد لنا بوحريد منصورًا سليمًا بالصحاب
فعلى الطريق وراء هذا الصمت عربدت الذئاب
الليل يحكمه الجنون!

جمـــيلة : (تقترب من جاسر) كانت أمينة لي أعز صديقه
لكنني ما كنت أعلم أنها في جبهة التحرير

جاســـــر : أعرف

جمـــيلة : عاشت مروعة الحياة يتيمة حتى إذا حم القضاءْ
ماتت شهيده!

(تدمع عيناها وسرحان يخرج)

جاســـــر : **(يواجه جميلة بصلابة)** لا يا جميله

إن ما نحتاجه ليس الدموع، بل الدماء

لا تطفئي لهب الإرادة بالبكاء

جمـــــيلة : أما أنا فأظل أبكيها إلى يوم النشور

جاســـــر : الدمع يطفئ شعلة الحقد المقدس في الصدورْ

جمـــــيلة : ألأنك البطل الجسور فأنت تحتقر الدموع؟

جاســـــر : أنا لست أحتقر الدموع فإنها

هي أصدق الأشياء في الإنسان، لكن...

(يصرخ فيها فجأة وهو يغالب أزمة دموع)

يا طفلتي الحمقاء

جمـــــيلة : أنا لست حمقاء، ولست بطفلتك

جاســـــر : أغضبت؟ معذرة، ولكني أجلُّك من قديم!

هي حدثتني عنك كم كانت أمينة تمدحك

وأنا أجلُّك منذ قصت لي حكايتك الشهيرة في فناء المدرسةْ

لما جمعت تبرعاتْ من أجل أطفال الضحايا

وأتى المدير مهددًا فطلبت منه تبرعًا

(يدخل سرحان ويتجه إلى جميلة مندفعًا)

ســـــرحان : نسى البطاقةَ عمنا

جمـــــيلة : عجبًا، وأين هي البطاقه؟

ســـــرحان : هي ذي

جمـــــيلة : **(تفحص البطاقة)** ما بالها ابتلت!

ســـــرحان : كانت وحافظة النقود بثوبه المخلوع في الحمام

جمـــــيلة : ويحي وكيف إذًا سندركه بها؟

جاســـــر : هو لن يغيب

ســـــرحان : أيكون راح إلى بعيد؟

جمـــــيلة : وارحمتاه له وكيف يسير من غير البطاقة في الطريق!

ســـــرحان : فلتعطني تلك البطاقة سوف أرجعها إلى الحمام

جمـــــيلة : اذهب وضع البطاقة حيث كانت

ســـــرحان : **(وهو ينصرف بالبطاقة)** جنب حافظة النقود

جاســـــر : **(يكمل لها)** إني أجِلُّك من قديم

ولطالما قالت أمينة عنك أشياء تثير الكبرياءْ

وشعرت بالزهو العميق لأن في فتياتنا هذا الإباءْ

جمـــــيلة : **(باهتمام وزهو)** حقًّا؟ أحقٌّ ما تقول؟

جاســـــر : ولكم روت عنك الشهيدة

جمـــــيلة : يا ليتنا عشنا على جنح السكينة يا أمينة، في السلام!

جاســـــر : لكنه المقدور

جمـــــيلة : **(بمرارة)** من قدّر العداء؟!

جاســـــر : من يشعل النيران في الزيتونة الخضراء والكرم النضيرْ

من يغرس السكين في قلب يغرد للسلامْ

من يزرعون الشوك في روح الصغار، ويحصدون الانتقامْ!

جمـــــيلة : أنا في فؤادي ذلك الشوك الذي يُدْمي الفؤاد

جاســـــر : الشوك في قلب البلادْ

جمـــــيلة : كيف الطريق إلى الخلاص؟ ألا طريقَ سوى الدماء؟!

جاســـــر : يا ليت أن الذئب يقنعه الكلام!

جمـــــيلة : إني أحس الخوف أحيانًا، أجل، أنا قد أخاف، وإنما أنا رغم ذلك بي اندفاع لست أعرف ما مداه.. فحينما أبصرتهم يتدافعون على أمينة بعدما

وقعت أمامي وهي تنزف بالدما

أوشكت أن أنقض مثل الغول فوقهمُ، فما

أبقى لهم أثرًا على أرض الجزائر

ووددت لو نبتت بأظافري خناجر

جاســـــر : فبكيت!

جمـــــيلة : إن المرء يبكي حين يعجز

جاســـــر : بل لن تحسي العجز بعد إني لأقسم يا جميله!

فالقلب ينضج هاهنا قبل الأوان

جمـــــيلة : إذا هو اكتشف الوسيلةْ!

(ثم منفجرة)

كيف الوسيلةُ.. كيف أخلص من معاناتي الذليلةْ!

أرأيت أصفى الأصدقاء يموت بين يديك غيله؟

أرأيت نظرته المودعة التي ترجوك وتكاد تصرخ فيك

كيف السبيل إلى القصاص؟

قل لي متى أنضم بين صفوفكم؟

جاســـــر : لا تقلقي. فغدًا يجيء الوقت!

جمـــيلة : أنا في الطفولة كنت أحلم أن أكون مجاهده

ورأيت أمي وهيَ تقتل فوق قبر أبي الشهيد!

فمضيت للجبل الأشم وعلى الطريق، على مشارف قريتي

قال الكبار لي: ارجعي.. فغدا يجيء الوقتْ

(طرقات على الباب)

جاســـــر : لا تفتحي حتى نرى من يطرق البابَ

جمـــيلة : اطمئن، إني لأعرف من يدق الباب من طرقاتهِ!!

(جميلة تهبط على السلم بثبات وتضيء المستوى الأول من عند آخر درجة وتتجه إلى الباب الخارجي، وجاسر يتابعها بنظراته وهو يقول لنفسه)

جاســـــر : **(لنفسه)** طفلة تحلم أن تنضم للجيش!! وفي كل بلدْ يحلم الطفل بلعبهْ أو بأثواب جددْ

إن في أقوالها شيئًا حقيقيًّا هو الصدق الجليلْ

إنها أروع مما كنت أحسبْ إن في نظرتها نار الغضبْ

إن في أعماقها الثورة، والحقد النبيلْ

جمـــيلة : من ذا يدق الباب..

(سرحان يقبل من الشرفة قائلاً في خوف)

ســـرحان : أعرفتمُ من ذا يدق الباب؟ ضابط!

جمـــيلة : **(لجاسر)** ابتعد.. ولتختبئْ في أي ركن

ســـرحان : هو ضابط شكل العرب..

جاســـــر : لا.. بل قفي فأنا سأفتح

جمـــــيلة : أنت؟ لا.. فالبيت بيتي

يا جاسر، ابعد

جاســـــر : (كقائد) افتحي.. لا تنطقي

(جميلة تفتح الباب وتقف فيه معترضة، بينما يتحصن جاسر وراء السلم بمدفعه)

جمـــــيلة : ماذا تريد؟

الضـــابط : (مازال في الخارج) أريد جاسر

جمـــــيلة : ماذا تقول؟

(الضابط عزام يدفعها ويدخل مطمئنًا ويغلق الباب وراءه)

جمـــــيلة : من أنت؟. ويحك كيف تدخل دون إذن بالدخول؟!

عـــــزام : (ضاحكًا) يدك الصغيرة لا إنها خلقت تقاومُ لا لِتُلثم!

(يتقدم، فتنتزع آنية كبيرة من فخار من البهو وتحاول أن تهوي بها على رأسه فيتقدم جاسر مسرعًا)

جاســـــر : لا يا جميلة! مرحبًا عزام!

عـــــزام : أهلاً.. ألف مرحب..

جمـــــيلة : (كالمأخوذة) أوَ أنت أيضًا منهمُ؟

ســـــرحان : (ضاحكًا) قد كاد يضرب

عـــــزام : بل كدتُ أقتل؟!

كم يحتوي هذا الكيان ــ على الهزال ــ من الشجاعة والبسالة!

(سرحان يعود إلى الشرفة ويختفي بداخلها)

جاســـــر : ألديك أخبار؟

عـــــزام : أجل، تلك الرسالةْ (يناوله ورقة) جاءت إليَّ من الجبل

عمـــــار : ماذا بها عزام؟

عـــــزام : إن الباخرة تسري بأنواع السلاح جميعه
وبها ضمادات وأغطية وأطعمة كثيره
وبها قنابل ناسفةْ ومفرقعات

جاســـــر : (يقرأ في الرسالة) تركت حدود سواحل البلد الصديق مساء أمس الأول..

جمـــيلة : "لنفسها" ما ذلك البلد الصديق؟ أمصر يعني؟!

جاســـــر : (مشيرًا إليها بالانصراف) تسمحين؟
لم يأت بعد الوقت كي تقفي هنا

عـــــزام : (ضاحكًا) سيجيء هذا الوقت بعد دقيقة.. فقفي هناك!

(جميلة تنزل السلم وتقعد في البهو والحديث مستمر)

جاســـــر : لابد من ترتيب تفريغ الحمولة في أمان
حتى نرتب نقلها إلى مجاهدينا في الجبل

عـــــزام : ومتى تصل؟

جاســـــر : ستكون عند الشاطئ المهجور بعد غد مساء

عـــــزام : ماذا تقول؟! أبعد غد؟ من ذا يجيء لنا بهند؟
إذ إنها هي وحدها من بعدما سقطت أمينة ـ للأسف ـ

من يستطيع قيادة الفتيات في أمر كهذا..

أم لا استعانة بعد بالفتيات في نقل السلاح!؟

جاســـــر : هذا سنتظر فيه حين يعود بوحريد بعمار وهند

عـــــزام : آه.. حين يبدأ الاجتماع!

(في نبرة ساخرة)

لكن شاعرنا العزيز معذب منذ الصباح

جاســـــر : ماذا يعذب قلب عمار؟! لقد وصل السلاح

والكوميساريا كلها نسفت. وإن فقدت أمينة بعدها

لكنه قدَر الكفاح!

ولقد نجحنا اليوم في الإضراب أيضًا، فالمتاجر أضربت..!

عـــــزام : عمار يحسب أنه المسئول عن موت الشهيدة!

ســـــرحان : **(قادمًا من الشرفة)** لا شيء في الطرقات

جاســـــر : يا سرحان.. انزل عند أختك تحت

ســـــرحان : **(بألم)** طيب

جمـــــيلة : **(من تحت)** لا بل دعوه هناك يرقب من يجيء

ســـــرحان : **(يتراجع إلى الشرفة)** نعم فلي عمل هناك

أنا هنالك لست ألعب..

جاســـــر : **(مبتسمًا)** حسنًا

جمـــــيلة : **(من تحت)** أأعد شايا؟

عـــــزام : الشاي؟

جاســـــر : شكرًا

عـــــزام : الشاي فورًا

(تتجه إلى السلم وتبدأ صعود درجاته)

جاســـــر : عزام.. لم تُقتل أمينة من شظايا الانفجار

كما يظن صديقنا عمار! قد كان هارون الشقي وراءها

عـــــزام : حقًا؟! إذًا، ليكف شاعرنا العزيز عن النواح!

جمـــــيلة : أتفضلان الشاي بال..

جاســـــر : **(مقاطعًا)** لا، لا ضرورة بل تعالي أسدلي هذا الستار

وأطفئي النور الكبير!

(يشير إلى ستار الشرفة، جميلة تصل الآن فتطفئ النور الكبير ولا يبقى في المكان غير شعاع خافت.. ثم تذهب وتسدل الستار على الشرفة.. وتدخل من فتحة الستار لتختفي في الشرفة مع أخيها.. وفي الشارع يظهر أحمد المصري من وراء الخرائب يدفع أمامه هارون الذي يكاد يركع أمامه من الذعر)

أحمـــــد : متع فؤادك كيف شئت من المكافأة العظيمه

واذهب إلى سادتك اللئام وقل لهم يا بن اللئيمه :

قطعوا لساني!!

هـــــارون : آ... آ... آ...

أحمـــــد : انقل لهم ما شئت من أخبارنا.

(هارون يكشف عن جلده الذي دمغ بكلمة جاسوس، ويحاول أن يتكلم فيعوي كحيوان)

هـــــارون : آ... آ...

أحمـــــــد : في كل جلدك مِيسَم! أقرأهُ: جاسوس عظيم!
لمَ لا تغير جلدك النجس القديم؟
ستظل تمشي في بقاع الأرض تحمل لعنتك
حتى تغير حرفتك!

(يتهيأ للاختفاء وراء جدار آخر وهو يدفع هارون إلى عرض الطريق)

أحمـــــــد : البث هنا حتى يعود بيبر.. راعيك الكريم!

(ثم وهو ينصرف إلى ما وراء الخرائب)

ياليت كل خطيئة كانت تسجل مثل تلك على جلود الخاطئين!
وإذًا لضاع الشر، وانتصرت فضائلنا علينا بعد حين
ولما وجدنا بعد ذلك خائنين ولا رجالا يكذبون
ولا نساء زانيات، أو خفافيشا تسود
ولا منافق أو حسود ولشاه وجه الحاقدين!

(يسمع صوت جنود فيختفي وراء جدار متهدم)

(بينما تدخل جميلة من الشرفة مندفعة إلى المجتمعين في بيتها في ذعر واضح)

جمـــــيلة : هم قادمون

ســـــرحان : **(في مدخل الشرفة)** لا.. إنهم وقفوا بعيدًا يسألون العابرين

جمـــــيلة : الآن نحن محاصرون

(صوت من بعيد هو صوت بيبر)

بـــــــيبر : قل: أين جاسر؟

(سرحان وجميلة وأنظارهما على الطريق وهما في مدخل الشرفة من فتحة ستارها)

سـرحان : قبضوا على شيخ عجوز وعلى امرأه!

هم يبحثون عن البطاقة في ثياب السيده!

(لنفسه) دع صدرها يا كلب

جميلة : **(لنفسها)** هم يبحثون عن البطاقات.. البطاقه!

جاسر : عزام، اذهب أنت! يا عزام، أسرع أنت لا تفقد دقيقه!

عزام : عجبا وأنت..؟

جاسر : يا عزام، فلتخرج.. لتسرع قلت لك!

(عزام على السلم ويسرع بالخروج)

جميلة : الآن، قل لي ما العمل!

جاسر : ألديْك مخبأ؟ أين مخبؤكم هنا؟

جميلة : **(مضطربة)** أنا لست أعرف إن عمي لم يقل لي أي شيء هو لم يكن..

جاسر : **(مقاطعًا)** لا بأس، فلأخرج إليهم في الطريق بمفردي!

(متقدمًا نحو السلم)

جميلة : (بذعر) ماذا تقول؟! أأنت تخرج للطريق بمفردك؟!

جاسر : لو أنهم قبضوا عليّ هنا لضعت، وضاع عمك وسيفقد التنظيم بعدُ ثلاثةً .. نحن الثلاثه!

جميلة : نحن الثلاثة!؟ أأنا انضممت إذًا إلى تنظيمكم؟!

أوَ ذاك حق!

(جاسر يتقدم بالمدفع الرشاش تحت ثيابه)

جاســـــر : (مقاطعًا) سأنطلق

جمـــــيلة : بل قف...

جاســـــر : سأحارب الأعداء في عرض الطريق

لن يمسكوا بي والدماء تدب مني في العروق!

(يتقدم إلى السلم)

جمـــــيلة : (تعترض طريقه على السلم) لا ! لا تغامر أنت!

كلا ليس أنت! فلو أنهم قتلوك!! لا لا

(جاسر يتخلص منها وهي متشبثة به)

جاســـــر : إنا لنعرف كيف نفقد واحدًا عند الضرورة، فاتركيني..

جمـــــيلة : لا ! لن يكون الواحد المفقود أنت! لتختبئ في مخدعي

جاســـــر : فإذا همُ عثروا عليَّ هناك! كم سيشوهون كفاحنا الحرّ!

جمـــــيلة : انتظر

جاســـــر : لا تفسدي خططي

جمـــــيلة : اكتشفت طريقة. فلتنتظر!

جاســـــر : لا ! لا تضيعي الوقت.

(وفي أثناء هذا التدافع يكاد جاسر يصل إلى نهاية السلم فتقف جميلة أمامه عند آخر درجة تعترض طريقه بكل جسمها، وذراعاها ممدودتان مستندتان إلى حاجزي السلم كأنما تمنعه بالقوة...)

جمـــــيلة : إنك لن تمر! إني اكتشفت طريقة، فلتنتظر!

(عزام يمشي الآن في ثقة ليخرج من القصبة فيفاجأ بهارون الذي يتخبط في الطريق).

عـــــزام : هارون، قف! لتجئ معي فإذا التفت أو اعترضت

فسوف تقذف بالرصاص.

(يخرجان من أحد الدروب، بينما يقبل بعض الضباط من صدر الطريق يتقدمهم بيير وفريتز)

ضـــــابط : كل المخابئ فُتشت يا سيدي الماجور، لكن لم نجد أحدًا هناك

ضابط آخر : هذا صحيح! لا أثر

بـــــــيير : وأين هارون اللعين يقودنا إلى مكان جاسر!

أنا قلت للوغد اللئيم أن انتظرني ها هنا!

مهما يكن فلتبحثوا في كل جحر

هو لم يغادر هذه الكاسبا! اقرعوا أبواب هذا البيت

(يشير إلى بيت مصطفى بوحريد في نداء عسكري للجنود)

سر

(يذهب فريتز مع عدد من الجنود باحثين عن باب بيت بوحريد)

فريتـــــز : **(يختفي باحثًا عن الباب ووراءه الجند)** أنا لست أعرف بابهُ

صوت آخر : هذا بابهُ

بـــــــيير : **(لضابط آخر)** وأنت فتش بين هاتيك الخرائب

(يذهب بيير وراء فريتز)

(الضابط ينظر باشمئزاز وخوف في الخرائب)

الضابط هذا يثير الخوف.. أوه!. لا يختفي الإنسان في تلك الخرائب

لا يختفي أحد هنا غير الأفاعي والعقارب

(يمشي مشمئزًا)

أوه! هذي البلاد الأفريقية!

(تسمع قرعات شديدة.. متوالية على باب بوحريد.. تفتح جميلة باب البيت ووراءها سرحان.. النور يغمر البهو وبيير وفريتز يدخلان وراءهما ضباط وجنود. بيير يتقدم فيعترضه سرحان.. بيير يركله.. ثم ينظر إلى جميلة في رقة مصطنعة وكأنه تعرف على وجهها)

بـــــيير : .. لاَ!! أأنت؟! مع من تعيش الفاتنه!!

ســـرحان : **(معترضًا)**.. الفاتنة!؟

جمـــيلة : مع مصطفى بوحريد عمي.. والصغير

ســـرحان : **(متحديًا)** معي أنا

فريتـــز : هل جاسر في بيتكم؟! قولي لنا

بـــــيير : ستكافئين إذا اعترفت

جمـــيلة : وكيف يحيا هاهنا في بيتنا

فريتـــز : قل يا صغير في أي حائط؟

ســـرحان : أنت ضابط أنت تعرف

بـــــيير : سنكافئك إن قلت سر الحائط السري

ســـرحان : **(نافرًا من بيير)** لست أكلمك

فريتـــز : قل لي أنا

ســـرحان : الحائط السري؟

فريتـــز : قل

ســـرحان : هو

بـــــــير : أين؟

ســـرحان : في ألف ليلة! أقرأتها! أسمعت عنها!!

بـــــــير : **(محنقًا لجميلة)** أين عمك؟

جمـــــيلة : في مغطس الحمام

بـــــــير : أين بطاقته؟

جمـــــيلة : هي ذي بطاقته يبللها العرق!!

بـــــــير : **(يمسك بالبطاقة بطرف إصبعه وهو يتجه ناحية السلم ويصعد مزمجرًا)**

قذرون!! أولا لاّ! قذارة! وأين المغطس الملعون؟

جمـــــيلة : **(تصعد)** من ذاك الممر

بـــــــير : **(وهو يصعد ومعه فريتز يقول له)** سنرى..

(للجنود) وأنتم فتشوا هذا المكان بلا هواده

قد تعثرون بجاسر الملعون تحت حشية أو خلف باب...

ســـرحان : أو في وساده!!

بـــــــير : **(مكملاً بحسم)** أو في جدار لا أو في إناء من فخار لا تتركوا شيئًا مكانه

(الجنود ينتشرون في الطابقين جميعًا ويقلبون الدنيا بينما.. جميلة التي صعدت الآن ومعها أخوها تتجه إلى بيير الذي يقف وسط الحجرة العليا مع فريتز وضابط)

جمـــــيلة : ادخل هناك من الممر، وثم، مل نحو اليمين

ثم اقرع الباب الذي تلقاه مقفولاً بوجهك!

(يدخل بيير في الاتجاه الذي أشارت إليه)

بـــــــيير : (من الداخل) يا مصطفى بوحريد.. افتح

جاســـــر : (من الداخل بصوت متغير) كيف؟

بـــــــيير : تفتيش

جاســـــر : أمهلني لألبس

بـــــــيير : (زاعقًا) افتح

جاســـــر : أنا لم أزل عريان

بـــــــيير : إذًا سأفتح بالمسدس

(يسمع صوت باب يفتح)

جاســـــر : أنا ذا فتحت

بـــــــيير : (حانقًا) اغطسْ

فريتـــــز : (مناديًا) يا سيدى ماذا دهاك!

بـــــــيير : (يعود مسرعًا) هذا اللعين الوغد يطلع لي كما ولدته أمُّه!

فريتـــــز : هل كنت ترجو أن تراه هناك في الحمام يرفل في الفراك!

(بيير يرمي البطاقة أمام جميلة وفريتز يضحك)

بـــــــيير : هي ذي بطاقته الحقيره

(جميلة تذهب بعيدًا وتنحني لتلتقط البطاقة وبيير يتابعها بنظراته، بصفة خاصة وهي تنحني، أحد الضباط يتقدم من بيير)

الضـــابط : يا سيدي الماجور جاسر ليس موجودًا هنا

بـــــــيير : (يتقدم ببطء إلى جميلة وهو يلقي عليها نظرات خاصة)

أيكون مختبئًا هنا حيث تختبئ الكنوز الباهره

(يحاول أن يتحسس صدرها فتقفز جميلة إلى الوراء)

جمـــــيلة : (تنهره) يا سيدي!

بـــــــيير : إني لتعجبني النهود الثائرة!

(جميلة تقفز للوراء أيضًا حتى تصل إلى حافة الشرفة وهو يتابعها)

وكذاك تجذبني الظباء النافره

(يجري سرحان إلى الداخل)

(فريتز يتقدم من بيير هامسًا)

فريتـــــز : لا! لا!

بـــــــيير : (لفريتز) أو لست تصبو أنت أيضًا للنساء المسلماتِ؟

انظر إليها.. إنها تبدو ككل المسلمات المحصناتِ
لكنَّما في عينها شغف بلذات الحياه!

(سرحان يعود مسرعًا وهو يخفي في جلبابه شيئًا ويقف بجوار أخته)

فريتـــــز : لا يا بيير! هيا! لنذهبْ

بـــــــيير : ماذا؟؟

فريتـــــز : أتحسب أننا جئنا لهذا؟

بـــــــيير : لست أحسبْ

لكن أراها فرصة والشيخ في حمامه والباب مغلق!

(يتقدم إليها وتلتصق هي بحاجز الشرفة تمامًا في رعب هائل)

جمـــــيلة : لا

(يقبل سرحان شاهرًا سكينًا طويلاً)

سـرحان : فلتحترس! إني ليعرفني الجميع هنا بسرحان البطل

بـيير : إنما السكين طولك هذا لتقشير البصل

(جميلة تختطف السكين من أخيها وتشهره للدفاع عن نفسها)

جميلة : لكنه قد يذبح الخنزير

سـرحان : **(ضاحكًا)** بل قولي الخروف..

بـيير : بالرغم مما تصنعين وما يبيح لنا دمك فأنا سأمنحك الحياة
وستشكرين بيير يومًا ما على هذا التفضل

(بيير منصرفًا)

فمتى تردين الجميل لمنقذك؟

فريتز : **(يتجه إلى السلم)** هيا تفضل

بـيير : **(يترك بطاقة زيارة على المائدة)** في ذلك العنوان بعد السابعة! من أي يوم!

(وينصرف الجنود والضباط.. فريتز وبيير أثناء النزول على السلم يتحدثان ويستمر الحديث بينهما حتى الباب الخارجي للبيت)

فريتز : هل أنت مجنون إلى حد التصور أنها ستجيء عندك..

بـيير : غدًا ترى.. إن لم تجئ سأجرها بالرغم منها
أنا عندما نحن احتلنا أرض ألمانيا... أجل
أنا كنت في برلين يومًا..

فريتز : **(بضيق شديد)** وانتزعت من النساء كما تشاء
قد قلت هذا ألف مرة!
لكننا كنا هنالك قد تمرغنا على وحل الهوان من الهزائم والدمار!
كنا انهزمنا تحت حكم الطاغية قبل ابتداء المعركه

أما هنا فهنا المعارك لا يخالجها سوى أمل انتصارْ!

إذ هم هنا شعب يناضل لاقطيعًا ما يساق بلا إراده..

أفهمت هذا؟ إنه وطن يناضل بالرجال وبالنساءْ

وبالصغار وبالكبار..

بالذكرياتِ بكل آمال الطفولة في السعاده..

وبكل ما في طاقة القلب الأبي من الإباء

ولكُلِّ إنسان هنا حرٌّ.. أجل! حر؟ أتفهم!

حر أمام مصيرهِ، وحياته، والآخرين

حر أمام الموت والتاريخ! لكن كيف تفهم أنت هذا؟

(يدفع الباب الخارجي بقدمه ويخرج إلى الشارع وتغلق جميلة وراءهم الباب)

بـــــــيير : **(لنفسه في الشارع)** هذا الفتى خطر، سأُبْلغ عنه عند رجوعنا فلقد يكون وراءه متمردون!

(لفريتز)!! اسمع فريتز، لأنت مأجور هنا لا كي تفكر

بل لتنفيذ الأوامر!!

(يختفون في بعض الدروب بينما يظهر جاسر في البيت وهو يفرغ من ارتداء ملابسه وهو يجفف رأسه)

جاســـــر : **(ضاحكًا)** ما كان أروع كل هذا يا جميله!

ســـرحان : **(بدهشة)** قد عاد يضحك! هل أنت تضحك؟

جاســـــر : أتظنني غولاً؟

جمـــــيلة : **(بإعجاب)** أجل غول على أعدائنا

جاســـــر : قد كدت أفسد كل شيء عندما أدركت أن بيير ينوي

جمـــــيلة : لا ، فما قد كان يمكن أن ينالوني ، ويي رمق

ســـــرحان : (متدخلاً بزهو) وأنا الذي دافعت عنك!

جاســـــر : أنت سرحان البطل؟!

(يضحكون)

جاســـــر : إني لأشكر للمجاهدة الجديدة أنها قد أنقذتني

جمـــــيلة : أنا؟ لا.. ولكن المصادفة الغريبة أنقذتك

ســـــرحان : لو كان غيري في مكاني لانحنى للعاصفهْ

لكنني أحضرت سكينًا

جاســـــر : (ضاحكًا) وأنا لهذا أشكرك!

ســـــرحان : لا شكر بين الأصدقاء

جاســـــر : الأصدقاء؟! وأنا سعيد بالصداقه!

(ضجة في الخارج، من بعيد جدًّا)

جمـــــيلة : انظر تصاريف القضاء لو أن عمي كان قد أخذ البطاقه! لو أنه لم يملأ الحمام ماء! لو..

جاســـــر : (مقاطعًا) لاكتشفت طريقة أخرى.. فمثلك ليس يُغلب!

(تقترب الضجة وعمار وهند يقبلان وحين يريان الجنود يختبئان في أحد الخرائب)

عمـــــار : (هامسًا لهند) هند.. تعالي هاهنا. فلننتظر

مصـــطفى : (صوته من جهة الصدر) لا.. لا تحاول أن تشد عباءتي

جمـــــيلة : (متجهة للشرفة) أسمعت؟ هذا صوت عمي!

(تزيح جزءًا من الستار)

جاســـــر : لا ! لا تطلي، إنهم يتجولون هنا. تعالي

(يطفئ النور ويظلم البيت تمامًا، بينما مصطفى بوحريد يظهر في أقصى المسرح جهة الصدر من على مرتفع وأمامه جنود يملأون المسرح هنا وهناك... الجنود والضباط يستعملون مصابيح كهربائية صغيرة "بطاريات" ليتبينوا وجوه الأشخاص إذ إن نور الشارع هزيل جدًا)

الضـــابط : (لمصطفى) بل أنت جاسر

ضابط آخر : أتظن أنك سوف يحميك التنكر؟

جـــندي : هو ليس جاسر

الضابط الأول : إن ذقنك مستعارة

(يحاول أن يشده من لحيته)

مصـــطفى : دع لحيتي، هي لا تمرغ في التراب

ضابط آخر : هي ذقنه حقًا، فأين بطاقتك؟

(مصطفى يفتش عليها بينما يظهر بيير من ناحية أخرى ومعه جنود.. بيير يعترض امرأة، وهي أم أمينة ومعها ابنها الصغير)

بـــــيير : أو لست أم أمينة أنت!؟

الطفـــل : (باكيًا) لقد قتلوا أمينه!

بـــــيير : قد كنت في ثكناتنا مسجونة منذ الصباح فمتى هربت؟

أم أميـــنة : لكنهم قد أفرجوا عنا، وهاهو أمر إطلاق السراح

بـــــيير : (يأخذ منها الورقة) لم أطلقوك.. وكيف؟! هيا اذهبي

(همسًا لضباطه)

هي أمٌ من نسفت صباح اليوم دار الكوميساريا

وقضت على عشرين منا

فتهيأوا للانتقام!

(يظهر أحمد المصري ووراءه فريتز وجنوده)

أحمـــــد : يا عم، قل لي ما العباره!؟

فريتـــــز : من أنت؟؟

أحمـــــد : أنا أحمد المصري، معروف هنا، في الدرب كله

ضـــــابط : أين بطاقتك؟

(أحمد يعطيه البطاقة)

أحمـــــد : خذها. وأرجعها إليّ

فريتـــــز : (وهو ينظر في البطاقة) من أين جئتَ؟

أحمـــــد : من مصر جئت

أبي أتى من مصر من سبعين عامًا

ضـــــابط : (مقاطعًا) من أين جئت الآن أنت!

أحمـــــد : من عند ربي

فريتـــــز : الشيخ مجذوب كما يبدو

جـــــندي : نعم أنا أعرفه هو صاحب المقهى المجاور

جـــــندي : أرني شواربك

أحمـــــد : هي يا أخي ليست معارة فأنا الذي ربيتها من نصف قرن

الجـــندي : اذهب إلى بيتك أيها المصري

أحمـــــد : **(لمصطفى بوحريد الذي وقف في ركن وهم يفتشونه)**

احرس عيونك قبل أن يسلل منها النور لص من فرنسا

أغلق مزالج بيتك المفتوح حتى لا يصير البيت رمسا

فريتـــــز : اذهب لبيتك

أحمـــــد : أوَ لاَ أكلّمه إذًا أو لست جارهُ!

"فريتز يدفعه بشدة فيختفي في أحد الدروب وراء جدار متهدم"

مصـــطفى : يا أحمد المصري، ها أنذا أقولُ: احرس لسانك!

الضـــــابط **(لمصطفى)** أين البطاقه؟

مصـــطفى : أنا لست أعرف أين راحت

ضـــــابط : وإذًا، فإنك أنت جاسر

أم أميـــنة : **(من ناحية أخرى لبيير)** يا سيدي، أنا ليس في جيبي بطاقه

فأعد إليَّ الأمر بالإفراج حتى أظهره للسائلين فإنكم تتجولون!

بـــــيير : أنا قلت: سيرى

أم أميـــنة : كيف!؟ الأمر لله

(تمشي أم أمينة ومعها الصغير)

بـــــيير : اتبعوها فلتقتلوا الولد الصغير أمامها ثم اقتلوها

فريتـــــز : (لمصطفى) اذهب.. وحاذر أن تسير بلا بطاقه!

سر من هنا

(مصطفى وهو يمشي بعيدًا يعترضه بيير)

بـــــــير : قف يا رجل لم أنت في وقت كهذا لم تزل في الشارع من بعد ما مُنع التجول!

مصـــطفى : بل ما يزال هناك ساعة! وأنا هنا بالقرب من بيتي

بـــــــير : وما اسمك؟!

مصـــطفى : اسمي؟ أنا..

(ولا يكمـــل إذ يفاجـــأ بطلقـــتي رصـــاص عـــلـــى أم أمينـــة والصغـير)

مصـــطفى : **(صارخًا)** لمَ تقتلونهما؟!

بـــــــير : أتسألني!؟

مصـــطفى : أجل.. لمَ يا وحوش؟.. لمَ تملأون الليل بالدم؟

(بدأ الناس يظهرون من الدروب على صوت الرصاص وأصواتهم تختلط)

أصـــــوات هي أسرة فنيت جميعًا قتلوا الثلاثة في نهار واحد!!

بـــــــير : **(يدفع مصطفى بمسدسه)** سر من هنا! أنا قلت سر!

مصـــطفى : أنا ذا أسير، فأين أذهب؟

بـــــــير : **(يحاول أن يدفعه)** اذهب إلى جاسر أتراك تجهل أين جاسر؟

مصـــطفى : **(يتوقف)** أنا سوف أبقى في مكاني هكذا حتى الصباح

بـــــــير : أنا قلت سر

(مصطفى الآن في أعلى مرتفع من الشارع)

مصـــطفى : لكنني

بـــــــير : لا تستدر

(يقف مصطفى وظهره إليهم بيير يطلق عليه الرصاص، بينما يظهر أحمد المصري من أحد الأركان، وتظهر هند وعمار بين الخرائب ومعهما بعض الرجال والأطفال والنساء.. جميلة تصرخ من الداخل وتحاول أن تندفع فيمنعها جاسر)

جميـــــلة : (من داخل البيت): عماه... عمي..!

أحمـــــد : (مندفعًا) يا أيها السفاح

عمـــــار : (من مخبئه يمسك بأحمد) يا أحمد المصري! لا! فسيقتلونك أنت أيضًا

مصـــــطفى (وهو يسقط) أتظن هذا الشر سوف يفيدكم!

بوحـــريد : لا! إنما تغتالكم تلك الشرور

ضـــــابط : هل أنت حي ما تزال؟ مت! استرح!

(يطلق عليه مرة أخرى فيتدحرج على الأرض حتى يسقط وراء المسرح من أقصى مرتفع ويختفي جثمانه تمامًا.. وهو يلقى آخر كلامه)

مصـــطفى : أنا مصطفى بوحريد.. بوحريد يقول لكم يقول: تحيا الجزائر! العار إن لم ننتقم

(جميلة مازالت تحاول أن تندفع إلى باب بيتها في الظلام في جزع شديد)

جميـــــلة : عماه! عمي

جاســـــر : (يعترضها) ارجعي فستقتلين

جميـــــلة : (صارخة) لنمت جموعًا ما يهم!

جاســـــر : بل اهدئي... فلسوف نأخذ ثأرنا منهم بألف!

جمـــــيلة : (وهي تحاول التخلص منه) إن مات ألف هل يعود؟!

جاســـــر : (يمنعها بالقوة) وأنت أيضًا لن تعودي إن خرجت..

جمـــــيلة : (صراخ مروع) ويلاه!! دعني

واختبئ كالفأر وحدك هاهنا.. عماه.. عمي!

جاســـــر : اسكتي.. لا تصرخي!

(يمنعها بالقوة من أن تنزل ومن الخارج تحاول هند أن تندفع من مخبئها بين الخرائب. فيمسك بها عمار)

هـــــــند : هل تحكم الفوضى؟!

عمـــــار : هند، اثبتي فـيقتلونك لا تتركي الغيظ المعذب يستفزك

(سرحان يجري مندفعًا إلى الشارع وبيده سكين يطعن بها ظهر الضابط الذي ضرب عمه آخر طلقة. فيقع الضابط بعيدًا)

ســـــرحان : عماه.... عمي

ضـــــابط : (يطلق النار على سرحان) يا أيها الفأر الصغير!

(بيير يتخذ موقف القيادة الآن ويبدأ في توجيه القوات)

بـــــــيير : فلتكتوهم بالمدافع.. اضرب هناك..

يا أيها الجبناء، قوموا من جحوركم، تعالوا واجهونا

يا أيها الفيران قوموا سندمر الكاسبا عليكم

فريتـــــز : لا يا بيير، كفى كفى هذا كثير هذا جنون! هل جننت؟

(أصوات طلقات من كل الدروب. رجل عجوز يظهر من حيث سقط بوحريد)

بـــــــير : (لفريتز) اهرب إذا ما شئت أنت!

فريتـــــز : آه لو أني استطعتُ!

نحن سفاحون مأجورون بل محترفون! نحن في هذا اللفيف الأجنبي عار هذا العصر حقًا! وبقايا من عصور الهمجيه!

بـــــــير : (لفريتز) أنا قلت اضرب.. (ويشرع مسدسه)

الـــــرجل : ما كل هذا يا بني.. ألا تخاف الله..

بـــــــير : (يضربه) خفه فقد يصونك!

الـــــرجل : (وهو يسقط) فليعش وطني الجزائر

بـــــــير : (لفريتز آمرًا) قف هاهنا... اضرب!. لتضرب!

(بعض الأولاد الذين ظهروا في الفصل الأول يظهرون الآن... مارين بأحمد وعمار وهند الذين اختبأوا وراء جدران ومعهم بعض رجال ونساء... النار تتلقى الأولاد)

فريتـــــز : (مرتكنًا إلى حائط معذبًا)

قد كذبوا باسمك يا ربي الناس تموت بلا سبب

والأرض تفيض عليها النارْ

فلماذا تترك هذا الشر يزلزل إيمان الأخيار؟

ولـــــــد : (للرجال المختبئين) لمَ تختفون؟ ألا شجاع منكُم؟

عمـــــار : الشجاع اليوم من يملك رأيه

وفروا هذا الدم الغالي ليوم الانتقام

(يظهر رجل آخر من أحد الدروب وعمار يمنع المختبئين من الاندفاع)

الـــــرجل : لمَ تشعلون النار في القلب الأمين؟

ضـــــابط : **(يضربه)** وما يهمك

امـــــرأة : **(تتفلت)** اتركوني.. إنه يقتل زوجي

امرأة أخرى : ووحيدي

بـــــيير : أين جاسر؟

امـــــرأة : يا وحوش

بـــــيير : **(ويضرب المرأتين)** لا تصيحي.. أنت أيضًا لا تصيحي فلتموتي معه.. فلتستريحي

(يتجول كقائد مظفر في ميدان معركة، ثم يعود ليقف على المرتفع الذي في صدر المسرح)

فريتـــــز : **(صارخًا)** لم كل هذا يا بيير.. كفى.. كفى

بـــــيير : اضرب الآن... تقدم أيها المرتزق الخائر واضرب! إنهم لن يرحموك الآن، فاضرب

أنت إن لم تطلق الآن عليهم ستحاكم وستعدَم!

(فريتز يضرب وهو مغمض العينين)

رجل من المخبأ : لم يا أحمد تجبن! أنت يا عمار خائف

(ثم يندفع بخنجره ليضرب ضابطًا)

الـــــرجل إن هذا الدم لن يهدر

ضابط يقول : اخرس!

(امرأة عجوز تندفع وهند تحاول أن تمنعها، بينما صوت رصاص يستمر والرجل يسقط)

هو يا هند وحيدي! قتلوه! قتلوه!

بـــــــيير : أين هم شجعانكم؟ الفدائيون أين أخرجوهم ينسفوني مثلما نسفوا مركز البوليس في هذا الضحى!

المـــــــرأة : لعنة الله على مَن جرَّ هذا كله، ثم اختفى!

(بيير من مكان قيادته في لهجة آمرة للضباط والجنود)

بـــــــيير : هاتوها هنا (يشدونها ويُقبلون بها)

خاطبيهم؛ العنيهم، والعني جاسر أيضًا

(رجل يندفع إليها)

الـــــرجل : اسكتي يا نذير الشؤم يا أحقر الناس جميعًا

(يضربها بسكين)

(تطلق عليه رصاصة.. وكل الذين يسقطون تتدحرج جثثهم إلى الدروب أو من المكان المرتفع في صدر المسرح بحيث تسقط غالبًا خارج المسرح)

عمـــــار : (للرجال الذين يحاولون الاندفاع) الشجاع اليوم من يملك قلبه والذي يحيا ليوم الانتقام

ما يزال الوقت ملكًا للذي يحسن التفكير فيه

رجل آخر : "لبيير" أشجاع أنت..؟ بارزني إذًا وجهًا لوجه

(ينقض الرجل على بيير من أحد الدروب ولكنه يصاب بالرصاص فيسقط في مدخل الدرب ويتدحرج خارج المسرح، يدخل بيير في أحد الدروب ووراءه بعض الضباط والجنود، وتسمع من حين إلى حين طلقة أو صرخة من بعيد)

رجـــــل : في غد يأتي زمان الانتقام

(عمار ذاهل... وأحمد المصري مدمر وكذلك هند)

عمـــــار : إنني أبصر من طوفان هاتيك الدماء

ذهب المستقبل الزاهي يضيء

هـــــند : بَدَلاً من كل هاتيك الرؤوس الداميهْ

بدلاً من كل هاتيك الدماء الجاريهْ

في غد، عندما يشرق فجر الأمن من رعب الظلام بالسلام
تنبت الحنطة في كل الحقول الخاويه!

عمـــــار : **(مكملاً كأنه يحلم)** ذهبيات السنابلْ حين يأتي الوقت

رجـــــل : **(في انفجار يائس)** ومتى الوقت يجيء؟

أحمـــــد : أترى من بعد هذا الهول في ليل من الرعب مضرج

بالدم الغالي سيأتي زمن نضحك فيه، أو سنبهج؟!

لا سلام الآن بعد إننا نحمل مسئولية القتلى جميعًا!

كل عين لم تزل مفتوحة فوق الترابْ

كل أشلاء الضحايا يا صحابْ كلها تلعنا.. تلعنا.. سيقول
الناس عنا قد جينا.. قد جبنا

فانظروا كيف جبنا!

(ينقض مسرعًا على ضابط فيطعنه على مدخل أحد الدروب ويختفي)

عمـــــار : امنعوه... امنعوه

(رصاصة من الداخل وصرخة أحمد المصري)

عمـــــار : قتلوه

هـــــند : هو أيضًا قتلوه!

عمـــــار : (في صوت فاجع) إيه يا من تخرجون الآن من جوف الليالي المرعبه
ومن الموج الرهيبْ لا تلومونا غدا فإذا جاء زمان أصبح
الإنسان فيه صاحب الإنسان حقًا فاذكروا أنّه لولا ماعاناه الرجال
مثلنا لم يجئ هذا الزمان!

(المسرح يكاد يخلو والآخرون يتسللون من الدروب)

هـــــند : ثم أنتم أيها الأطفال، يا من تولدون الآن من جوف الليالي
الفاجعه لتعيشوا في غد خضرة الزيتون في شمس أمان ساطعه في
غد... عندما يا صغاري تكبرون

لا تلومونا ولا تقسوا علينا

لا تقولوا: إننا في ذات يوم قد ضعفنا أو جبُنّا

ما ضعفنا! ما ضعفنا! ما ضعفنا

إننا نمسك من أجلكمُ أعصابنا

إننا من أجلكمْ إننا من أجل أن نصنع مستقبلكمْ أنتم، وتاريخ
الليالي.. نختفي إننا لم نضعفِ لم نضعفِ

عمـــــار : هند، لا تتكبري أن تذرفي الدمع اذرفيه.. اذرفي

فالبكاء الآن أفضل إنه أولى بنا!

(ترتمي على كتفه باكية)

(جاسر في الداخل وجميلة واجمة)

جاســـــر : (في صراخ فاجع) لمَ أنت واجمة كذلك؟ اصرخي. لمَ تسكتين؟
أو لم ترَىْ جثث الرجال ونبالة الإنسان تسحقها النعال؟!

جمـــــيلة : (في انهيار بصوت شاحب غائر له رنين كالمأساة)

أسفاه!....

جاســـــر : لم تعد الحياة هي الحياه...

ستار

❖ ❖ ❖